ليست هزيمة وعي أو ثقافة!

مبارك ربيع

يمثل الواقع العربي اليوم صدمة قوية لعامة المواطنين، وللمثقفين بصفة خاصة، اذا اردنا ان نسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية. فهي هزيمة كبرى او هي أكبر هزيمة تحل بنا حتى الآن. وكوننا نحاول ان نستثمر هذه الهزيمة استثماراً سياسياً أو دبلوماسياً لا يغيّر من الواقع، على أمل ان يغيّر من المستقبل. لكن الهزيمة تبقى هزيمة... وتستوجب المواجهة من قبل المثقف العربي، وهي ليست الأولى بعد ١٩٤٨ و١٩٦٧، ثم كامب ديفيد (بعد ١٩٧٣ المجيدة) مروراً بالمعارك الهامشية التي تخوضها الثورة الفلسطينية في هذا البلد العربي او ذاك، والمعارك الأخرى التي يخوضها العرب بعضهم ضد بعض هنا وهناك...

بعد كل هزيمة، يواجه المثقف العربي بالصدمة وضرورة تجديد الرؤية وتجديد التحليل. ذلك ان المثقف العربي، ومعه المواطن بصفة عامة، قد راهنا بكل شيء على القضية الفلسطينية ضد كل شيء. الصدمة تكون تبعاً لذلك شاملة، تحدث الشلل او تكاد. هل ثن تقصٌ في التحليل، وبالتالي في الوعي بالنسبة للمثقف العربي؟ وما طبيعة الهزيمة التي نعاني منها اليوم؟

أؤكد أن ١٩٦٧ كانت صحوة حقيقية بالنسبة لوعي المثقف العربي. وربما كانت ١٩٧٣ (مع كامب ديفيد) صحوة مماثلة. فقد تميّزا بشيء من المفاجأة بالنسبة للمواطن والمثقف العادي. وإن ما نقرأه من تحليل ونسمعه او نشارك فيه طوال هذه المدة، وكذلك ما يصدر من إبداع أدبي، في الرواية العربية على الخصوص، كل ذلك بعيد عن أن يدلّ في مجمله على ان المثقف العربي غريب عن ساحة الصراع الدولي والمحلي، بعيد عن ان يدل على جهله بالقوى المتصارعة في طول الوطن العربي وعرضه، بعيد عن ان يدل على غفلته عن طبيعة الوجود الصهيوني في المنطقة او مخططاته... هذا على مستوى الوعي والتحليل. اما على مستوى العطاء فبماذا بخل المواطن العربي من ثورته؟ لقد أعطى النفس والمال والقلم... ومع ذلك، يحدث الأمر كالمفاجيء...

والغريب ان إعادة لقراءة الصحف والمجلات العربية قبل غزو لبنان تبيّن ان المخطّط كان معروفاً، وبكثير من التفاصيل أحياناً، ومع ذلك، يحدث الأمر كالمفاجيء

من هنا تبدو طبيعة الهزيمة، فهي هزيمة تقنية تكنولوجية، عسكرية، هزيمة الجندي الشريف الذي يستشهد او يقاتل حتى تنفذ ذخيرته او تعطب فيؤسر، وذلك بالنسبة لمن خاضوا المعركة بحق، وهزيمة عار وخذلان بالنسبة لمن جعلوا من القضية الفلسطينية قميص عثمان للمتاجرة والمزايدة، فكانت نتيجة ذلك تكالب القوى المختلفة والمتناقضة فيما بينها على هذه القضية وثورتها.

ومن أكبر مظاهر السلب، ذلك التحليل وأحياناً تلك الممارسات التي تسلك سبيل التضخيم في الربط الوثيق بين تحرير الأرض الفلسطينية والانسان الفلسطيني من جهة، وتحرير الانسان العربي بعامة، والإنسان في العالم الثالث، بصورة أعم من جهة ثانية،

من كافة أشكال الاستغلال والعبودية والتبعية الامبريالية والرجعية. إن ما جنته الثورة الفلسطينية من مساوىء ذلك وسلبياته اكثر مما جنته من ايجابياته، ولا سيما في الظروف الحالكة والحاسمة.

إن أية ثورة من ثورات تحرير الأرض، في العالم العربي وفي غيره، لم يعلق بها ما علق بتحرير الأرض الفلسطينية ــ زوائد تطغى على القضية نفسها. ومعارك تحرير الأرض كلها ذات طبيعة واحدة، ومهما اختلفت الظروف لا يمكن ان تؤدي الى المناقضة. فالهزيمة تقنية تكنولوجية عسكرية، وليست هزيمة وعي او ثقافة. ليست هزيمة المثقف او المواطن الا بالتبعية.

الموقف المطلوب من المثقف العربي أن يتخذه اليوم، هو موقف قد اتُّخذ سلفاً، وهو الموقف الذي اتخذه المواطن العربي على العموم. ولكن كلاً من المثقف والمواطن في وطننا بعيد ومُبعد عن موقع التقرير والتنفيذ. ولا أريد ان أقع في خطر من يمكن ان يقول إن صراع المثقف والمواطن ليحتل مركز القرار والتنفيذ جزء من صراع الفلسطيني ليحرر وطنه، لأن هذا يسهل الانزلاق الى القول بأن معركة المواطن العربي (وربما الأنسان المتخلف) أشمل ومن ثم فهى أشق...

المثقف العربي مطالب بتنمية الوعي واستثماره، وممارسة النقد على أوسع نطاق. واذا لزم البحث عن ثغرات في وعي المثقف العربي ومواقفه، فقد تكون في هذه الظاهرة التي تجعله يقبل بسهولة واضحة ان تفرض عليه ظلال تحجب عنه الرؤية الصحيحة. ولا تلبث هذه الظلال ان تتميز أشباحاً فأصناماً في كافة مجالات الحياة، وبدءاً بمجال الحياة الثقافية ذاتها.

في رأيي ان الرواية من أهم ادوات التحليل، وهي لذلك تستطيع ان تقدم خدمة حقيقية في نشر الوعي وتعميقه بقضايا المواطن العربي. ولا يمكن إغفال الدور الذي أدّته الى الآن في رسم معالم المجتمع العربي في تحوله وقواه المتصارعة ومطامحه.. مع المظهر الإبداعي في النماذج الناجحة من هذه الرواية طبعاً. واذا كانت المرحلة الحالية تتطلب شيئاً من الروائي على الخصوص، فلن يكون تغييراً في الاتجاه بقدر ما هو إمعان فيه وتعميق له، وهو المطلوب نفسه من المثقف العربي بصفة عامة. اما ما هو اكثر من ذلك او ما هو غير ذلك، فقد يكون مطلوباً أيضاً من الروائي على الخصوص او المثقف عموماً، ولكن على مظهر آخر وبهوية أخرى.

الرباط (المغرب)